سقــــراط
أستاذى الذى لم أره
٤٧٠ ق. م - ٣٩٩ ق.م

كثيرا ما أشـعر برغبة ملحة فى إعادة قراءة الفلسفة اليونانية، مع أننى أحفظ بعضها عن ظهر قلب. وعند إعادة القراءة تنتابنى لــذة رائعة. مع أننى أعرف ما أقرأ. هى لذة تنسـاب إلى نفســى. كما تنساب النغمات إلى الإحساس دون وعى صاحبها. إن الفلسفة اليونانية بالنسـبة لى كمقطوعات موسيقية سـيمفونية، أو قل كأغنيات رائعة، كلما استمعت إليها لا أشبع بل أريد المزيد. وكلما أعدت القراءة ازدادت المتعة.

من حســن الحظ أننى قرأت الفلسـفة منذ صغرى وساعد مدرسها – الأستاذ وليم رحمه الله – فى أن أعشقها وأحبها، فقد كان المدرس عاشقا محبا للفلسـفة. ونقل هذا العشـق إلى تلاميذه. وهكذا الأسـتاذ القدير والمدرس الفاهم لعلمه وعمله يسـتطيع أن يشجع تلاميذه ويحببهم فى العلـم والأدب والفـن. لم أكتف بكتب المدرسـة الثانوية بل ذهبت إلى المكتبة لأقرأ المزيد فى الفلسـفة، وكنت أبحث مع الباعة عن أى كتاب جديد فى الفلسـفة لأقتنيه وشـعرت أن الفلسفة هى العلم الذى يحترم فكر الإنسـان ويدفعه إلى احترام الآخر، ويشجعه على المزيد من التأمل

ومعرفة الكون الذى يعيش فيه، وتأكدت أن الإنسـان فيلسوف بطبعه، أليس له تفكيره الخاص ورأيه في الحياة ومشـاكله الخاصة ومشـاكل الآخرين؟ إذن كل إنسـان فيلسوف، لأن كلمة فلسفة هى كلمة يونانية تنقسـم إلى قسـمين، «فيلو» بمعنـى حب، «سـوفيا» بمعنى الحكمة، فيكون المعنى الكلى للكلمة هو حب الحكمة، ومن منا لايحب الحكمة، أو يبحث عنها، أو يتحلى بها؟

عرفت أستاذى من خلال هذه الفلسفة، رجل بسيط متواضع، محب للآخريـن، يدعو إلى الفضيلة والإيمان بالإلـه الواحد، واحترام الدولة وقوانينهـا، يؤمن بالحـوار الحر للوصول إلى الحقيقـة، محاور جيد يعرف كيف يصل بك إلى معرفة الحق، لا هم له إلا نشـر الفضيلة بين الناس، وبخاصة الشباب: صاحب رسالة مدافعا عن رأيه بصلابة حتى لو قدم حياته فداء عن ذلك، هو أول من أنزل الفلسـفة من السـماء إلى الأرض، أى جعلها تفكر فى مشـاكل الإنسان وعلاقاته وحياته بدلا من التفكير فى (الميتافيزيقا) أى مابعد الطبيعة.

إنه أسـتاذى الفاضل الذى لم أره، وكيـف أراه وقد عاش فى القرن الخامس قبل ميلاد السـيد المسـيح فى الفترة من سـنة ٤٧٠ إلى سـنة ٣٩٩ ق.م؟!

إنه أستاذى سقراط أبو الفلسفة.

تعلمت من أسـتاذى سقراط التواضع، فقد قالت نبوءة معبد أبوللون إن سـقراط أحكم رجل فى أثينا، وعندمـا سمع النبوءة هام على وجهه يبحـث عن الحقيقة ولمـاذا هو أحكم من فى أثينـا؟ وكانت الإجابة إن

سقراط أحكم رجل فى أثينا لأنه عرف عن نفسه أنه لايعرف شيئا.. منتهى التواضع والبساطة، تواضع العلماء.وتعلمت من أستاذى الذى لم أره أن أعرف نفسى بنفسى، فهو القائل «اعرف نفسك» لأنه لايستطيع أحد أن يعرفك أكثر منك.. كما تعلمت من سقراط أن الوجاهة الحقيقية هى وجاهة العقل الراجح والفكر المستنير، فقد كان يمشى فى الشوارع والحوارى عارى الرأس حافى القدمين يرتدى ثيابا عادية، بل أقل من عادية، ومع تحفظى على ما كان يفعله أستاذى إلا إننى أوافقه على أن رجاحة العقل ووجاهة الفكر أفضل بكثير من الوجاهة المزيفة.

كان أستاذى سقراط محبا للحق لايقول إلا ما يشعر أنه الحق، ومن هنا كان له أعداء كثيرون، وهم المنافقون الذين يتغيرون بين لحظة وأخرى، يأكلون على كل الموائد، يثبتون الشىء ونقيضه فى آن واحد، إنهم السوفسطائيون، أى المعلمون، الذين آمنوا بأن الإنسان مقياس كل شىء، وأن القوة أساس الحق، والأنانية أساس الأخلاق، ولاينبغى إطاعة القانون تأكد سقراط أن هؤلاء الناس خطر حقيقى على المجتمع، وبخاصة على الشباب، فقرر أن يهاجمهم ويعريهم أمام الجميع، ويثبت كذب آرائهم وفشلها، واعتبر هذه رسالته فى الحياة، فهو صاحب رسالة، والذى يتعرض للخدمة العامة وفكر الإنسان، لابد أن يكون صاحب رسالة وإلا لاداع لعمله أو فكره، ومن الأفضل له أن يبحث عن عمل آخر، فصاحب الرسالة هو رسول من السماء، ولايستطيع أى إنسان أن يكون صاحب رسالة وإنما هناك شروط يجب أن تتوافر فيه،

أولها الإيمان بقضيته العادلة، والتضحية بكل غال ورخيص من أجلها، بل التضحية بحياته لو تطلب الأمر ذلك..!

كان أستاذى سقراط صاحب رسالة توفرت فيه كل صفات المفكر الأمين وصاحب الرسالة الصادق الذى يعيش من أجل تحقيق هذه الرسالة. وتحمل الكثير من أجل ذلك، اتهم بأنه يفسد الشباب، ويدعو لآلهة جديدة، ويشجع على الخروج على نظام الدولة. لكنه لم يكترث وإنما ظل يجول فى الشوارع والطرقات يدعو الشباب والناس إلى الحب والفضيلة والخير والحق والجمال، ومن أقواله:

لا تعبأ بما يقوله الناس بل اعمل بما يمليه عليك العقل الحكيم.. يستحيل على الرجل الصالح أن يصاب بسوء لا فى حياته ولا بعد موته.. الفضيلة لا تشترى بالمال ولكنها المعين الذى يتدفق منه المال ويفيض به الخير.. الحب هو تعطش الروح البشرية إلى الجمال المقدس.. الحياة التى تخلو من امتحان النفس ليست جديرة بالبقاء.. لا خير فى الحياة إلا إذا كانت خيرة عادلة.. لا يحق لك الانتحار لأنك لست ملكا لنفسك بل أنت ملك لله.. الاعتدال، الشجاعة، الحق، النبل هى لآلئ النفس التى يجب أن تتحلى بها.. خير لك أن تكون مظلوما عن أن تكون ظالما.. أشرف وأنفع لك أن تبادر بإصلاح نفسك من أن تهاجم الناس.. لا تأخذ بالثأر ولاترد الشر بالشر ولا تضر بأحد.. لاتكن فى خلاف مع نفسك ولا تقل غير ما تؤمن به حتى لو اختلفت مع كل الناس.. العدالة ليست منحة من القاضى وإنما هى حق للمتقاضين عليه أن يوفرها لهم..

دفعتني هذه المبادئ الأخلاقية و لفلسفة الحكيمة إلى حب واحترام أستاذى العزيز الذى لم أرد، إنه يدعو إلى الخير الذى دعا إليه كل الرسل والأنبياء، وبدأت أقرأ كل الكتب التى كتبت عنه تقريبا، وبخاصة كتاب «محاورات أفلاطون» تلميذه النجيب الذى قدم أستاذه سقراط لنا، ولعله أهم مرجع لنا عن أبو الفلسفة، مع كتب شيشيرون، ومذكرات كانوفون وكتابات أرسطو، والمؤلفات القديمة والحديثة عن سقراط وعن الفلسفة اليونانية.

لم يتخل سقراط عن رسالته التى عاش من أجلها، وتحمل الكثير من الإهانات والصعوبات، من الطريف أن يتزوج بامرأة جاهلة لاتقدره ولاتعرف دوره الأخلاقى، بل كانت تجرى وراءه فى الشوارع والميادين وتوبخه وتضربه وتمزق ثيابه وتقذفه بالماء، وكان حليما معها يردها بلطف، ويتخلص من أذاها بهدوء، ويقول: لقد رزقت بامرأة عنيفة جامحة فإذا صبرت عليها هان علىّ ما قد ألقاه من الناس جميعا.. وخرج سقراط من هذا الزواج بحكمة تقول: يجب على الرجل أن يتزوج، فإذا تزوج بامرأة فاضلة سيكون زوجا سعيدا، وإذا تزوج بامرأة سيئة سيكون فيلسوفا..

استخدم سقراط مع محاوريه أسلوب التهكم والتوليد، أى يظل يحاور الآخرين بمنطقهم ثم يجعلهم يسخرون من أنفسهم فى النهاية ويعترفون بصدق آرائه وكلامه، أى يُوّلد منهم آراءه هو، فيساعدهم على الوصول إلى الحق والإيمان بالآراء الصحيحة، وكانت والدة سقراط

السـيدة «فايناريت Phainarete» تعمل قابلـة، أى مولدة، لذلك قال: «كانت أمي مولدة أجسام. أما أنا فمولد عقول».

ذات صباح خرج سـقراط كعادته إلى الميدان وفوجىء أمامه بمنشور معلق على لوحة يتهمه بعدة اتهامات باطلة هي:

الكفر بالآلهة وإيمانه بآلهة جديدة، إفسـاد الشـباب وتشكيكه، وقال المنشور أيضا إن عقوبة هذه الاتهامات الإعدام..

لم ينزعـج سـقراط أو يخاف، فهـو صاحب رسـالة، وهو يعرف جيدا أعداءه، أعداء الخير والحق. السوفسـطائيين الذين لاهم لهم إلا جمع المـال وبيع العلم دون الإيمان بالقيم، وقد هالهم أن يقدم سـقراط للناس المعرفـة والعلم مجانا، وفـى الطرقات والميادين، وهو الرجل البسـيط المظهر والمأكل، فقد كان طعامه كسـرة مـن الخبز مع الزيتون وقليل من النبيذ، وصمم سـقراط على الاسـتمرار فى رسـالته حتى لو حوكـم، أو صدر ضـده حكم الإعـدام، فهو يؤمن برسـالته ودوره ولن يتخلى عن نشـر المعرفة وإرشاد الشـباب والدعوة إلى الفضيلة والإيمان بالإله الواحد، تشكلت محكمة قوامها خمسمائة من المحلفين اختيروا بالقرعة من الفلاحين والتجار، كان معظمهم لا يعرف عن سقراط شيئا، إلا الاتهامـات التى اتهم بها، وعندما وقف أمامهم يفند ادعاءاتهم فى صبر وهدوء، وبأسـلوب مهذب وكلمات معـبرة، أعجب الجميع به، وبهرهم دفاعه عن نفسه واقتنعوا ببراءته، قال سقراط لهم:

«.. إن حياتـِي ومـا قدمت من خـير أكرم مما أعددت مـن دفاع.. إنكم توجهون إلى تهمة إفسـاد الشـباب لمغنم شـخصى ولكن تعاليمى

هذه لم تجلب عليّ غير الفقر.. إننى أسعى وراء الحق وأدعو الآخرين لمشاركتى فى ذلك، وذلك طاعة منى لله، فأنا أطيع الله بوصفى فيلسوفا، تماما كما كنت أطيع قائدى بوصفى جنديا فى الجيش. أما تهمة إفساد تلاميذى فردى على ذلك هو أننى بلغت من العمر حدا يؤهلنى لأن أدرك أننى إذا كنت سببا فى ضرر وإيذاء الآخرين، فلن أصيب بالأذى سوى نفسى، وليس هناك إنسان فى كامل قواه العقلية يرغب فى أن يجلب الأذى لنفسه ولذلك فأنا أنكر أننى قد سببت الأذى يوما عن قصد لأى فرد فى هذا العالم، وحقيقة الأمر أيها القضاة أنكم تقفون منى هذا الموقف العدائى لأننى قد كشفت على الملأ ادعاءكم المعرفة، كما أننى قد خلعت النقاب عن جهلكم المستور ولم أفعل ذلك لأحط من قدركم بل على العكس لأرفع من هذا القدر ولأوجهكم إلى حكمة أعظم، ثم القيام بعمل أفضل.. أيها الأثينيون لست خجلا مما قمت به من أعمال قد تؤدى بى إلى الموت قبل أن ينتهى عمرى الطبيعى، وذلك لأنى أؤمن بأن الرجل الذى يجد فى نفسه الكفاية للقيام بعمل من الأعمال ينبغى ألا يأخذ فى اعتباره مسألة موته أو حياته، وألا ينظر إلا إلى شىء واحد بعد.. هل كان مصيبا أم مخطئا؟، إننى أخشى العار ولكننى لا أهاب الموت لأنه ليس شرا، وهو إحدى اثنتين، إما أن يكون كرقدة النائم لا تزعجه الأشباح وهذا يقع بلا ريب.. وإما أن يكون ارتحالا إلى مكان آخر أفضل، وهذا خير كل الخير.. أيها الرجال الأثينيون.. إننى أبجلكم وأحبكم ولكنى أطيع الله قبل أن أطيعكم، والله يأمرنى أن

أعلم أهل وطنى الفلسفة، فإذا أطلقتم سراحى فإنى مواصل إرشاد الناس وطاعة الله، لأن هذه هى الرسالة التى وهبتنى إياها الإرادة الإلهية.. أيها الأثينيون لن تفيدوا بقتلى إلا أمدا قصيرا.. وستدفعون له ثمن ما تنطلق به ألسنة السوء تذيع عن المدينة العار، ستقول عنكم أنكم قتلتم سقراط الحكيم، فسيدعوننى وقتئذ بالحكيم، وإن لم أكن حكيما، تقريعا لكم، ولو صبرتم قليلا لظفرتم بما تبتغون بطريقة طبيعية، فلقد طعنت في السن، وبلغت من العمر السبعين عاما، فلم يبق لى فى الدنيا على أية حال إلا وقت قليل وليس من الأهمية بمكان إذا أنا رحلت الآن أم السنة القادمة، ولكن للأمر أهميته العظمى إذا ماقررتم إعدامى أو لم تقرروا، إننى أفوض أمرى إليكم وإلى الله، وقبل أن تصدروا أحكامكم فإنى أطالبكم بأن تراجعوا مصالحكم ومصلحتى على السواء...

هكذا دافع سقراط عن نفسه، ورفض أن يدافع عنه أحد، فهو الواثق من نفسه، ومن عدالة قضيته، ومن يستطيع الدفاع عنه أفضل منه، وهو الخطيب المفوه، والحكيم الذى يؤمن بالله والفيلسوف الذى يلتف حوله الشباب؟

وكان من الممكن أن يستعطف سقراط المحكمة – كما كان معتادا تلك الأيام – بأن يحضر أبناءه الثلاثة وزوجته إلى قاعة المحكمة، لكنه رفض ذلك شجاعة منه، بل ورفض عقوبة النفى بدلا من الإعدام، إنه الواثق من عدالة قضيته، الذى لايهاب المحاكمة، الشجاع فى الحق صاحب الرسالة على الرغم من قوة دفاع سقراط عن نفسه، وإعجاب معظم أعضاء المحكمة به، إلا أن الحكم صدر بإعدامه عن

طريق احتساء كأس السم. وافق على الحكم ٢٨٠ شخصا من المحلفين وعارضه ٢٢٠. ولم ينفذ الحكم إلا بعد شهر نظرا لوجود موسم الحج الذى يحرم فيه القتل فى أثينا. وكان هذا الشهر مدة كافية لتلاميذ سقراط ليزوروه ويتحاوروا معه فى كل ما يريدون. خلود الروح. قصور الحياة الأخرى. أهمية احترام قوانين الدولة. حقيقة الموت.. وجاء «أقريطون» أحد تلاميذ سقراط المحبين واقترح عليه الهروب من السجن. وقد أعد لذلك خطة محكمة. وقدر سقراط حب تلميذه لكنه أعطاه درسا لاينسى فى ضرورة احترام قوانين الدولة. والشجاعة فى المواقف الصعبة.. قال سقراط:

(هناك صوت يهمس فى أذنى كما تفعل نغمات القيثارة فى أذن المتصوف. إنه صوت القوانين تحدثنى قائلة:

يا سقراط ماذا أنت فاعل؟ أتريد بهروبك أن تهز كياننا؟ هل تتصور دولة ليس لأحكام قانونها قوة ولاتجد من الأفراد إلا نبذا أو طرحا؟.. اعلم ياسقراط أن من واجب الإنسان أن يصدع بما يأمره به الوطن. سواء كان فى ساحة الحرب أم فى ساحة القانون.. ياسقراط.. لاتدع نفسك بهروبك من السجن ومن المدينة موضع سخرية من أجل رغبة حقيرة فى طول العمر مدة قصيرة وأنت الشيخ الكهل. إنك ستعيش ولكن كيف؟ متملقا للناس جميعا.. وخادما للناس جميعا. ثم أين ياترى ستكون تلك العواطف النبيلة الجميلة التى تبديها حول العدل والفضيلة؟ اصغ إلينا إذن ياسقراط. فنحن الذين أنشأناك. لاتفكر فى الحياة أولا. وفى

العدل ثانيا، بل فكر فى العدل أولا. وارحل الآن بريئا مجاهدا لا فاعلا للرذيلة..) محاورات أفلاطون ترجمة د.ذكى نجيب محمود.

جاء اليوم الموعود لإعدام سقراط. فتقدم حارسه وقدم إليه كأس السم شـارحا له كيفية تناولها، وارتفع صوت بـكاء التلاميذ ونواحهم على أسـتاذهم الحكيم مما ضايقه فقال لهم: ما هـذا العبث والصخب الذى أسمعه؟ لقد صرفت النساء حتى أتجنب هذا..، أرجوكم الهدوء لأموت فى سلام..

وتناول سـقراط الكأس مرة واحدة. وأصبـح بعد دقائق جثة هامدة سـنة ٣٩٩، وبرحيله يسـدل السـتار عن أول شهيد للفلسـفة والفكر الحـر فى التاريخ، لتبقى حكايته وقصته نبراسـا للأجيال، ونموذجا لقتل الفلسـفة والفكر الليبرالى الإنسانى على مرّ التاريخ، ولتخلد حياة سـقراط ويصبح شهيدا للفكر أبو الفلسفة. ولكى تعطى الفرصة لتلاميذه لحمل الرسالة بعده. فأقام أفلاطون الأكاديمية الرائعة – نسبة إلى اسم البطل أكاديموس – وهى مدرسة فلسفية علمت الأجيال. وكان من أبرز تلاميذها الفيلسـوف «أرسـطو» صاحب نظريات النقد الأدبى، والوسط الذهبى. وقال أفلاطون عن أرسطو إنه عقل الأكاديمية.

بعد إعدام سـقراط انتشر الحزن فى أرجاء أثينا، وشعر الجميع أن هـذا الإعدام جريمة لا تغتفر. فأعلن المسـئولون الحداد العام، وأقاموا تماثيل لسقراط فى كل مكان، كما بحثوا عن خصومه للفتك بهم.

إن أستاذى «سقراط» أبو الفلسفة وشهيدها من العباقرة الذين لايمكن

أن تتنـــاهم الذاكرة، بل قد أنســى بعض تفاصيل حياتى ولا أنسى هذا الفيلســوف العبقرى المحب للحكمة، الذى كان يجول ينشــر الفلسفة والحكمــة بــين الناس، وينــادى بالفضيلــة واحــترام آراء الآخرين، والإيمان بنظام الدولة وقوانينها واحترام هيبتها.

□□□